﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس: 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعجّبوا من إنزالِ الكتابِ الحكيمِ على مُحمَّدٍ ﷺ

"لمّا كان كونُ الكتاب مِن عند الله - مع كونِه حكيمًا - موجِبًا لقَبوله بادئَ بَدْءٍ، والسُّرورِ به؛ لِما تقرَّر في العُقول وجُبِلَتْ عليه الفِطَرُ مِن أنَّه تعالى الخالِقُ الرّازقُ كاشفُ الضُّرِّ ومُدبِّرُ الأمرِ؛ كان ذلك مَوضِعَ أن يُقالَ: ما كان حالُ مَن تُلِيَ عليهم؟ فقيل: لم يُؤمنوا، فقيل: ما شُبْهَتُهم؟ هل قدَروا على معارضتِه والطَّعنِ في حِكْمَتِه؟ فقيل: لا! بل تعجَّبوا مِن إنزاله على محمَّدٍ ﷺ وليس هو بأكثرهم مالًا، ولا بأقدَمِهم سنًّا، فرجَع حاصلُ تعجُّبهم إلى ما قاله تعالى إنكارًا عليهم؛ فإنَّه لو أرسَل ذا سِنٍّ قالوا مثلَ ذلك، وهل مثلُ ذلك مَحَلُّ العَجَبِ؟!"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَجَبًا﴾: أصلُ (عجب) يَدُلُّ عَلَى كِبْرٍ واسْتِكْبارٍ لِلشَّيْءِ، ومنه العُجْبُ، وهو أنْ يَتَكَبَّرَ الإنْسانُ في نفسِه. تَقولُ: هو مُعْجَبٌ بِنَفْسِهِ[2]. والمُعجَب: الإنسان المُعجَب بِنَفسِه، أو بالشَّيْء، تَقول: عجَّبت فلانًا بِشَيءٍ تعجيبًا فعجِب مِنْهُ[3]. والعجبُ النَّظرُ إلى شيءٍ غيرِ مألوفٍ ولا مُعتادٍ[4]، والاستعجاب: شدَّة التَّعجُّب، وهو مُسْتَعْجِبٌ ومُتَعَجِّبٌ ممّا يرى. وشيء مُعْجِبٌ، أي: حَسَن، وأعجبني

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/65 - 66.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عجب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عجب).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عجب).

وأُعْجِبْتُ به[1]. والمقصود بالعَجَبِ في الآية: حالَةٌ تعتري الإنْسانَ من رُؤْيَة شَيْء على خلاف العادة[2].

2) ﴿أَنذِرِ﴾: أصْلُ (نذر): يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويف[3]. والنُّذُرُ: جَماعةُ النَّذيرِ (الرُّسُل)، وهو الاسْم من الإنْذار. والتَّناذُرُ: إنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا[4]. ومِنْهُ: النَّذْرُ، وهوَ أنَّهُ يَخافُ إذا أخْلَفَ. والنَّذْرُ أيْضًا: ما يَجِبُ، كَأنَّهُ نُذِرَ، أيْ: أوجب[5]. والمُراد بـ﴿أَنذِرِ﴾ في الآية: أعْلِمهُم مع التَّخْويفِ، والمُنذِرُ مَن يُخبِر غيرَه بأمرٍ مُخوِّفٍ حتَّى يحذَره[6].

3) ﴿قَدَمَ﴾: أصْلُ (قدم): يَدُلُّ على سَبْقٍ ورَعْفٍ (تقدُّم)[7]. فالقَدَمُ مِن لَدُن الرُّسْغ: ما يَطَأ عليه الإنسان[8]، وجمعُه: أقْدامٌ، وبه اعتبر التَّقدُّم والتَّأخُّر[9]، يُقال: ورَجُلٌ قَدَمٌ، وامرأةٌ قَدَمٌ: إذا كانا جَريئين[10]، والقُدْمَة والقَدَمُ: السّابقةُ في الأمر[11]، والقَدَم أيضًا: كلُّ ما قدَّمتَ مِن خيرٍ[12]، يُقال: لِفُلانٍ قَدَمُ صِدْقٍ، أيْ: شَيءٌ مُتَقَدِّمٌ مِنْ أثَرٍ حَسَنٍ[13] أو سابقةِ فضيلةٍ[14]، وهذا هو المقصود في الآية.

4) ﴿صِدْقٍ﴾: أصْلُ الكَلِمَة يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ، ومنه: الصِّدْقُ، سُمِّي به؛ لِقوَّتِه في نَفْسِه، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّة له. ومعناه: اعْتِبارُ الكلام صحيحًا لا كَذِبَ فيه، وهو نِسْبَةُ الصِّدقِ إلى المُخْبِرِ بالاخْتيارِ، أي: بالقَلْبِ واللِّسانِ، وضِدُّه: التَّكذيبُ. والصِّدِّيقُ:

(1) الخليل، العين: (عجب).
(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/364.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نذر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(6) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 4/120، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/137.
(7) الخليل، العين: (قدم).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قدم).
(9) الرّاغب، المفردات: (قدم).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قدم).
(11) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قدم).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قدم).
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدم).
(14) الرّاغب، المفردات: (قدم).

المُلازِمُ لِلصِّدقِ. والصَّداقُ: صَداقُ المَرْأةِ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِقوَّتِهِ وأنَّهُ حَقٌّ يَلْزَمُ[1]. والمرادُ بالصِّدق في الآية: كلُّ فِعْلٍ فاضِلٍ ظاهرًا وباطنًا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

موقفُ المُشركين مِـنَ الـرِّسـالـةِ النَّبويَّةِ الكريمةِ والرَّدُّ عليهم

عجبت قريشٌ من إرسال الله محمَّدًا ﷺ إلى العباد، وقالوا: أما وجدَ الله مَن يرسلُه إلينا إلا يتيمَ أبي طالب؟ فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ توبيخًا وإنكارًا[2]، أكان هذا باعثًا للنّاس على التَّعجُّب أن أنزلنا الوحيَ على رَجلٍ من جنسهم، آمرين إيّاه أن يُحذِّرهم من عذاب الله؟! وأخبِرْ - أيُّها الرَّسول - الّذين آمنوا بالله بما يَسرُّهم، أنَّ لهم منزلةً عاليةً جزاءً على ما قدَّموه من عملٍ صالحٍ عند ربّهم سبحانه، يَستوجِبون بها منه الثَّوابَ، ومن فَرْطِ حماقتِهم وقصورِ نَظَرِهم على الأمور العاجلةِ وجهْلِهم بحقيقة الوحْيِ والنُّبوَّة[3] قالوا: إنَّ هذا الرَّجلَ الَّذي جاء بهذه الآياتِ لساحرٌ ظاهرُ السِّحر، فخسِروا البشارةَ، واستحقّوا النِّذارةَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستفهامِ في المَطْلعِ:

تعجّبُ المشركين مُستَنكرٌ لا وَجْهَ له

الهَمزَةُ اسْتِفهامٌ لِلتَّعجُّبِ، معناهُ التَّقريرُ والتَّوبيخُ لِإنْكارِ التَّعجُّبِ ولأجلِ التَّعْجيبِ مِن هذا التَّعَجُّبِ، أيْ: كَيْفَ يَتَعَجَّبونَ مِن ذلك تَعَجُّبَ إحالَةٍ[4]، وعليه: فإنَّ تعجُّبَ هؤلاء المشركينَ ليس في محلّه، ولا وجْهَ له عقلًا[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق)، وينظر: الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(2) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 2/538.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/111، والبيضاويّ: أنوار التّنزيل: 3/104، وجماعة من العلماء، المُختَصر في تفسير القرآن، ص: 208.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.
(5) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/34.

نُكتةُ التّعبيرِ بفِعْلِ الكوْنِ الماضي:

تقرُّرُ التّعجُّبِ واستِحكامُه فيهم

اللَّطيفةُ البلاغيَّةُ المُتشوَّفُ إليها بفعل الكوْن الماضي: أنّ التَّعَجُّبَ أُحْدِثَ، وتَقَرَّرَ فيهم مِن وحْينا؛ لأنَّ فِعْلَ الكوْنِ يُشْعِرُ بالاسْتِقْرارِ والتَّمَكُّنِ، فإذا عُبِّرَ به أشْعَرَ بأنَّ هذا غيرُ مُتَوَقَّعٍ حُصولُهُ[1].

فائدةُ إدخالِ الاستفهامِ المُستعمَلِ في الإنكارِ على (كان):

المُرادُ التَّعجُّبُ من تعجُّبِهم وتوبيخُهم بأنَّ المألوفَ ليس موضعَ العجَب

فائدةُ إدْخالِ الاسْتِفْهامِ الإنْكاريِّ عَلى (كانَ)، دونَ أنْ يُقالَ: (أعَجِبَ النّاسُ)، هي الدَّلالةُ على التَّعْجيبِ مِن تَعَجُّبِهم المُرادِ به إحالَةُ الوَحْيِ إلى بَشَرٍ[2]. فالمُراد بالهمزة المعنَى التَّعجُّبيّ[3]، أي: إنْكارُ التّعجُّبِ، والتّعْجيبُ مِنهُ[4]. و"التّوبيخ على أنّهم اتّخذوا إرسالَ رَجُلٍ منهم موضعًا للعَجَب، فالرَّسول لا يمكن أن يكون إلّا رجلًا منهم، فلا يصحّ أن يكون ملَكًا منَ الملائكة"[5].

دَلالةُ اللّام في ﴿لِلنَّاسِ﴾:

تمكّنُ العَجَب منهم واستقرارُه في نفوسِهم، وبيانُ حالِهم

قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِكانَ لِزيادةِ الدَّلالةِ على اسْتِقْرارِ هَذا التَّعَجُّبِ فيهِم؛ لِأنَّ أصلَ اللّامِ أنْ تُفيدَ المِلْكَ، ويُسْتَعارُ ذَلِكَ لِلتَّمَكُّنِ، أيْ: لِتَمَكُّنِ الكَوْنِ عَجَبًا مِن نُفوسِهِم[6]، ويجوزُ أن تكون اللّام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: 23]، فهو متعلّق بمَحْذوف دلَّ عليه ﴿عَجَبًا﴾[7].

إيثارُ (اللّام) على (عند):

جعلوا الوحيَ أُعْجوبَةً، وعيَّنوه مقصِدًا للاستهزاءِ

قال ﷺ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ ولَم يَقُلْ: (أكانَ عِنْدَ النّاسِ عَجَبًا)، والفَرْقُ أنَّ قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ مَعْناهُ: أنَّهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/83.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/83.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/382.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/5.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3508.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/83.
(7) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 9/382.

جَعَلوهُ لِأَنْفُسِهِم أُعْجوبَةً يَتَعَجَّبونَ مِنها، ومقصدًا يوجِّهون نحوه استهزاءَهم وإنكارَهم، ونَصَّبوهُ وعَيَّنوهُ لِتَوْجيهِ الطّيَرَةِ والاِسْتِهْزاءِ والتَّعَجُّبِ إليه، ولَيْسَ في قولِ: أكانَ عند النّاسِ عَجَبًا، هذا المعنى[1].

إيثارُ لفظِ (النّاس):

تحقيقُ الشِّركةِ بين الرَّسولِ ﷺ وبينَهم

المُرادُ بالنّاسِ: كُفّارُ العربِ، والتَّعبيرُ عنهم باسْمِ الجِنْسِ مِن غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِكُفْرِهِمُ الَّذي هو المَدارُ لِتَعَجُّبِهِم كَما تَعَرَّضَ له فيما بعدُ[2]، يُحقِّقُ جملةً منَ النّكتِ البلاغيَّة.

فقد أُطلِقَ هذا اللَّفظُ، والمرادُ به بعضُ أفرادِه لِتَحْقيقِ ما فيه منَ الشّرِكَةِ بَيْنَ رسولِ اللّه صَلّى اللّه تَعالى عَلَيْهِ وسَلَّمَ وبَيْنَهم، وتَعْيينِ مدارِ التَّعْجيبِ في زَعْمِهِم ثُمَّ تَبْيينِ خَطَئِهم وإظْهارِ بُطلانِ زَعمِهم بإيرادِ الإنْكارِ[3].

تَنْزيهُ الرّسولِ ﷺ ودفعُ توهّمِ أن يكون منهم

وفي إيثارِ لفظِ (الناس) التّوصّلُ إلى نسبة (رَجُل) وهو محمّد ﷺ إليهم هكذا ﴿رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾، ولو قيل: (الذين كفروا) لما صحَّت تلك النِّسبة، ففيه تَنْزيهٌ للرَّسول ﷺ، ودفعٌ لتوهّم أن يظنَّ مُبطلٌ أنّه - صلوات ربّي وسلامُه عليه - واحدٌ من (الذين كفروا) - حاشاه - [4].

سِرُّ التّعبيرِ بالمصدرِ المُنَكَّرِ ﴿عَجَبًا﴾:

بالغَ في إظهارِ عَجَبِهم منَ الاصطفاءِ

عبّر بالمصدر الصّريحِ للتَّعبير عنِ المبالغة في إظهارِ عَجَبِهم مِن اصطفاءِ رجلٍ منهم للرِّسالة؛ لما يُفيده المصدرُ الصّريحُ، منَ القطع بحصول الفعلِ، والمبالغةِ في تحقيقه. فعندما تصفُ بالمصدر، أو تخبرُ به كأنما تُحوّل الشَّيءَ إلى مصدر، فقولُك: هذا رجلُ خيرٍ؛ كأنّما تَحوَّل كلُّه إلى خيرٍ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/58.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/116.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.

بَلاغةُ الكنايةِ في لفظِ (العَجَب):

عبّرَ عنِ استحالةِ الـوقـوعِ بلفظ العَجَب

لفظُ العَجَب هاهنا كِنايَةٌ عن إحالَةِ الوُقوعِ، كما في قوله تَعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: 72 - 73]، وقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: 63][1]، وكانَتْ حِكايَةُ تَعَجُّبِهِم بِإدْماجِ ما يُفيدُ الرَّدَّ عليهِم بِأنَّ الوَحْيَ كانَ إلى رَجُلٍ منَ النّاسِ، وذلك شَأْنُ الرِّسالاتِ كُلِّها، كما قالَ تَعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: 109]، وقالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: 9]، وقالَ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾ [الإسراء: 95][2].

وكذلك تُعجِّبُهم الحكايةُ بإدماج ما يدلُّ باللُّزوم على إنْكارِ التَّكْذيبِ بلْهَ الإنْكارِ على تَعَجُّبِهِم منَ الإيحاءِ إلى رجُلٍ منَ البَشَرِ[3].

تقديمُ خبرِ كان على اسمها:

قـدّمَ محـطُّ العنايةِ، ومَدارُ التَّعْجيبِ

قدّم الخبرَ وهو قوله: ﴿عَجَبًا﴾، على اسم كان: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾، والتَّقديرُ: كانَ إيحاؤُنا عَجَبًا لِلنّاسِ؛ لأنَّهم يُقَدِّمونَ الأهَمَّ[4] ليُهْتَمَّ بشأنِهِ لكوْنِهِ مَدارَ الإنْكارِ والتَّعْجيبِ، وتَشْويقًا إلى المُؤَخَّرِ؛ ولِأنَّ في الاسْمِ ضَرْبَ تَفْصيلٍ، ففي مُراعاةِ الأصلِ نَوْعُ إخْلالٍ بِتَجاوُبِ أطرافِ الكلامِ، والحاصلُ: أنَّ في تقديم خبرِ كان دلالةً على أنّه مَصَبُّ الإنكار[5] ومحلُّه؛ فكان أهمَّ، وبالتَّقديم أتمَّ[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/116.
(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/382.

إيثارُ المصدرِ المؤوَّلِ، ووجهُ صَوْغِ فعلِ الوحي ماضيًا:

تحقّقُ حدوثِ الوحي المُتيقَّنِ وتجدُّدِه يزيدُ المُنكرين كَمَدًا

قولُه تعالى: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ اسْمُ كانَ، وجيءَ فيه بِـ (أنْ) و(الفعْلِ) دونَ المَصدرِ الصَّريحِ وهو (وحْيُنا)؛ ليُتَوَسَّلَ إلى ما يُفيدُهُ الفعلُ منَ التَّجَدُّدِ، وصيغةِ المُضِيِّ منَ الاستقرارِ تَحْقيقًا لوقوعِ الوحْيِ المُتعجَّبِ منهُ وتَجَدُّدِهِ، وذَلِكَ ما يَزيدُهم كَمَدًا[1]. وفيه تخصيصُ الحديث عن حَدَث الوحي دون الالتفات إلى هيئتِه، وماهيّتِه؛ فالمُتعجَّبُ منه الحدثُ نفسُه هو معنى اختُصّ به المصدرُ المُنْسبِك دونَ الصَّريح.

التَّعبيرُ عنِ الشّخصِ بالتَّنكيرِ دونَ العَلَميَّةِ:

مَنْ أرسلَه اللهُ مُبجَّلٌ، كاملُ الرُّجولةِ

جاء اختيارُ لفظةِ ﴿رَجُلٍ﴾ بصيغة التَّنكير؛ لتدلَّ على أنَّ هذا الَّذي أرسله اللّه إلى النّاس، قد بلغَ الغايةَ في الرُّجولةِ، بدلالة هذا التَّنوين المأتيِّ به للتَّبجيل، وأنَّه منهم لا يخفاهُم أمرُه، وكلُّ ذلك لينسجمَ المعنى مع غرَضِ الآية، ولأنَّ في هذه اللّفظة ردًّا على القوم الّذين تعجّبوا من إرسال رسولِ اللّه ﷺ[2].

بَلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ في لفظ ﴿رَجُلٍ﴾:

حالُ الأقوامِ السّابقةِ مع رُسُلهم الإنكارُ جهلًا، وخفّةُ العقلِ

تكمُن بلاغةُ المجازِ المرسلِ في لفظ (الرَّجل)، أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ هذا الإنكار، وذلك التَّعجبُ هو حالُ الأقوام جميعًا مع رُسُلهم الّذين أُرسلوا إليهم، فكأنَّ أولئك الأقوامَ تواصَوا فيما بينَهم على هذه الشُّبَه[3].

كما أنَّ في هذا دلالةً منهم على شدّة جهلِهم، وقلّة تأمّلِهم وتدبّرِهم، حين ظنّوا أنّ كوْنَ الرَّسول رجلًا سببٌ لرفض دعوته، ومحاربتِه؛ وكأنَّ مشاركتَهم له في البشريَّة يمنعُ اختصاصَ اللّه إيّاه بما شاء منَ العِلم[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/83.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/66.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/118.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 357.

نُكتةُ إيرادِ الجارِّ والمجرور ﴿مِّنْهُمْ﴾:

النّعيُ عليهم ومعرفتُهم بكونِه منهم تنقضُ اتّهامَهم له

النّكتةُ أنّه ﷺ في غايَةِ الرُّجوليَّةِ[1]، وهو مع ذلك ﴿مِّنْهُمْ﴾ بحَيْثُ إنَّهم يَعْرِفونَ جَميعَ أمرِهِ، وكانَتْ حِكايَةُ تَعَجُّبِهِم بإدْماجِ ما يُفيدُ الرَّدَّ عَلَيْهِم بِأنَّ الوَحْيَ كانَ إلى رَجُلٍ مِنَ النّاس، وذلك شأْنُ الرِّسالاتِ كُلِّها[2]. فوجهُ نِسْبة النبيِّ ﷺ إليهم معرفتُهمُ اليقينيّةُ به لكونِه منهم تنقضُ اتّهامَهم له، وتُعرّضُ بهم لجهلِهم، وانعدامِ تفكيرهم، وتغْييبِ عقولِهم. ونكتةُ هذه النّسبة النَّعيُ عليهم لأنَّهم يعرفون محمَّدًا معرفةً جيّدةً، ولم يُجرّبوا عليه كذبًا قطُّ، فكيف يتّهمونه بادِّعاء الرّسالة؟ ولو قيل إلى (مُحمَّدٍ)، لَفات هذا المعنى[3].

إيثارُ المصدرِ المؤوّلِ: ﴿أَنْ أَنذِرِ﴾:

الشَّأْنُ إنذارُ النّاس على معهودِ الخطابِ

وُضِعَ المصدرُ المُؤوَّلُ موضعَ الصَّريحِ للدّلالة على وفْرةِ المعاني مع إيجازٍ في المباني؛ وذلك بتقديرِ الاحتمالاتِ الموافِقةِ للمُرادِ الشَّرعيِّ.

فعلى تحريرِ ﴿أَنْ﴾ التَّفْسيريَّة أو المَصْدَريَّة المُخَفَّفَةِ منَ الثَّقيلَةِ، فأصْلُ البيان أنَّهُ أنْذَرَ النّاسَ على مَعْنى أنَّ الشَّأْنَ قولُنا: أنْذِرِ النّاسَ على معهود خطابِ الله تعالى.

خصّصَ الخطابَ بحدثِ إنذارِ النّاسِ دون كيفيّاتِه

وعلى تقرير ﴿أَنْ﴾ المَصْدَريَّةِ الثُّنائيَّةِ الوَضْعِ، لا المُخَفَّفَةِ مِنَ الثَّقيلَةِ، فهي توصَلُ بالماضي والمُضارِعِ والأمرِ، فَوُصِلَتْ هُنا بالأمرِ، ويَنْسَبِكُ منها معه مَصْدَرٌ، تَقْديرُهُ: بإنْذارِ النّاسِ[4]، وفيه أنَّ المَصدرَ المؤوَّل ولا سيما مع ﴿أَنْ﴾ يدلُّ على مجرّد معنى الحدثِ دونَ احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي ﴿أَنْ﴾ تحصينٌ منَ الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال: هيئةً، وكيفيَّةً، وحالًا. فالكلامُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/66.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/84.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.
(4) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 1/435.

مُخصَّص على حدثِ إنذارِ النّاس فحسبُ، دون كيفيّاته، وأحواله، وتفصيلاته، وكُنْهِه.

دلالة الأمرِ في فعل الإنذارِ:

الأمـرُ بـالإنـذارِ رَدعٌ عن فعلِ ما لا يَنبغي

الإنذارُ إخبارٌ معه تخويفٌ في مدَّة تتَّسع التَّحفُّظَ من المُخوَّف منه[1]. ومعنى الأمر أنَّ الشَّأن قولنا: أنذر النّاس ليَرْتَدِعوا بِسَبَبِ ذَلِكَ الإنْذارِ عَنْ فِعْلِ ما لا يَنْبَغي[2].

تفصيل الإجمال في جملة ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾:

بَـعـدَ إجـمـالِ الوحي بيَّن الله تَفْصيلَه

والمُراد: أخْبِرْهم بِعواقب فِعْلِ ما لا يَنْبَغي تَخْويفًا لَهم بمّا يَتَرَتَّبُ. وتحريرُ ذلك: أنَّهُ تَعالى لَمّا بَيَّنَ أنَّهُ أوْحى إلى رَسولِه، بَيَّنَ بَعْده تَفْصيلَ ما أَوْحَى إليه وهو الإنْذارُ والتَّبْشيرُ تَخلية وتحلية[3].

بلاغةُ حذْفِ المُنْذَرِ به:

الحذفُ لِلتَّهْويلِ والتَّخويفِ بكثرةِ احتمالاتِ المُنْذَرِ به

ولم يُذكرِ المُنذَرُ به وذُكرَ المُبَشَّرُ به؛ لأنَّ المقامَ يقتضي ذلك، فحُذِفَ المُنْذَرُ بِهِ لِلتَّهْويلِ والتَّخويف بكثرة احتمالاته، ولِأنَّهُ يُعْلَمُ حاصِلُهُ مِن مُقابَلته بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾[4].

وَجهُ تَكرارِ لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

رسالةُ النَّبيِّ ﷺ لجميع النّاسِ الَّذينَ يُمكِنُهُ تَبليغُهم

لفظُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الثّاني يَعُمُّ جَميعَ البَشَرِ الَّذينَ يُمكِنُ إنْذارُهم، فَهو عُمومٌ عُرْفيٌّ[5]، والمُرادُ بِهِ جَميعُ النّاسِ الَّذينَ يُمكِنُهُ ﷺ تَبْليغُهم ذلك لا ما أُريدَ بِالنّاسِ أوَّلًا[6].

بَلاغةُ المَجازِ المُرْسَل في لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

تـــواردُ كـثرةِ المـعـانـي عـلى الـلَّـفـظِ الـواحـدِ تجوّزًا

المُرادُ بِـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ ثانيًا غَيْرُ المُرادِ بِهِ أوَّلَ ذِكْرٍ بِلَفْظِهِ الظّاهر دونَ

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/16.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/85.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/60.

أنْ يُقالَ: أنْ أنْذِرْهم[1]، وهو النُّكْتةُ في إيثارِ الإظْهارِ على الإضْمارِ وكوْنُ الثّاني عَيْنَ الأوَّلِ عند إعادةِ المعرفَةِ لَيْسَ على الإطْلاقِ[2].

ولمّا عُطِفَ على الأمرِ بالإنْذارِ الأمرُ بالتَّبْشيرِ لِلَّذينَ آمَنوا؛ بَقيَ النّاسُ المُتَعَلِّقُ بِهِمُ الإنْذارُ مَخْصوصًا بِغَيْرِ المُؤْمِنينَ[3]، ولمّا كان الإنْذارُ عامًّا كانَ مُتَعَلَّقُهُ وهو ﴿ٱلنَّاسَ﴾ عامًّا[4].

دَلالةُ واو العطفِ:

عطفُ البشارةِ على النِّذارةِ لمُطلَقِ الجمعِ مع اقتضائِها الخلافَ

الواو عاطفةٌ، ﴿وَبَشِّرِ﴾ معطوفٌ على ﴿أَنذِرِ﴾؛ والقصدُ إلى إزالة ما لا ينبغي تخليةً، ثمّ التَّثنيّةِ بما يَنبغي تحليةً، وقد يكون من عطف تبشيرِ أهلِ الطّاعات على إنذارِ أهلِ الكفر والمنكراتِ، أو عُطفت البِشارةُ على الإنذار ليُناسبَ مقامَ التّعجُّب من وحْيِ الله إلى النّبي ﷺ[5].

سِرُّ تغايُرِ مفعولَيِ الإنذارِ والتَّبشيرِ:

الإنذارُ إخبارٌ مع تخويفٍ كما أنّ البِشارةَ إخبارٌ مع سُرورٍ، وإنَّما عمَّم الإنذارَ وخصَّ التَّبشيرَ بالّذين آمنوا؛ لأنّه لا يَخلو مُكلَّفٌ عن شيءٍ يُنذرُ فيه، وليس لدى الكفّار فعلٌ يُبشَّرون به، وحالُ إنكارهم يُناسبُ الإنذارَ؛ لذلك خصّ التّبشيرَ بالمؤمنين، وأعمَّ الإنذارَ[6].

الإنذارُ قرينُ التَّخويفِ والبِشارةُ قرينةُ السُّرورِ

عِلّةُ التَّعبيرِ عن مفعولِ التَّبشيرِ بالاسمِ الموصولِ:

الإشارةُ إلى سببِ التَّبشيرِ وهو الإيمانُ

في العُدولِ إلى التَّعبيرِ عن مفعولِ التّبشيرِ بالاسم الموصولِ ﴿الَّذينَ﴾ إشارةٌ إلى سببِ التّبشيرِ؛ لأنّ التَّعبيرَ بالاسمِ الموصولِ دليلٌ على أنَّ الصِّلةَ سببُ الحكمِ، فالإيمانُ سببٌ في البِشارة[7].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/60.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/9.
(5) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.
(6) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 2/427.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/168.

نُكتةُ تخصيصِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالتّبشيرِ:

ليس للكُفّارِ ما يُبشَّرون به منَ الخيراتِ

خُصَّ الَّذينَ آمَنوا بالبِشارَةِ بقَبولِ حسناتِهم وتكْفيرِ سيّئاتِهم والتَّجاوُزِ عن هفواتِهم وتَرَفُّعِ درجاتِهم، كما هو مُقْتَضى العَدلِ في إثابَةِ الطّائعِ وعِتابِ العاصي غُنْمًا وغُرْمًا[1]، ونُكتَةُ التَّخصيصِ أيضًا أنّ الكُفّارَ ليس لهم ما يصحُّ أن يُبشَّروا به حقيقةً[2]، فلا عَملَ خيرٍ يُبادِرون إليه، ولا فِعْلَ معروفٍ يُثابون عليه.

نُكتَةُ إيصالِ فعْلِ البِشارة إلى المبشَّرِ به دون حرفِ جرٍّ:

المسارعةُ إلى الفعْلِ بدون واسطةٍ تعجيلًا بالتَّبشيرِ

وفِعْلُ التَّبْشيرِ يَتَعَدّى بالباءِ، فالتَّقْديرُ: وبَشِّرِ الَّذينَ آمَنوا بأنَّ لَهم قَدَمَ صِدْقٍ، فحُذِفَ حرفُ الجَرِّ مع (أنَّ) جَرْيًا عَلى الغالبِ[3]، ونُكتةُ إضافَةِ القَدَمِ - الَّذي هو السّابقَةُ بالطّاعَةِ - إلى الصِّدقِ موَصِّلًا لِفعلِ البِشارَةِ إلى المُبَشَّرِ بِهِ دونَ حرفِ جَرٍّ: حيث خصَّهم بـ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾، أيْ: أعْمالًا حَقَّةً ثابتَةً قَدَّموها لِأنْفُسِهم صَدَقوا فيها وأخْلَصوا فيما يُسِّروا لَهُ؛ لِأنَّهم خُلِقوا له وكانَ ممّا يُسْعَى إليه بالأقْدامِ[4]، ولمّا كان خبرُ التّبشيرِ مَظنّةَ الفرحةِ الكبيرةِ، والمنّةِ العظيمةِ سارعَ إلى الفعلِ بدونِ واسطةٍ تعجيلًا بالتَّبشيرِ.

وجْهُ تقديمِ الإنذارِ على التَّبشيرِ:

الحديثُ موجَّهٌ إلى مُنكري النُّبوّةِ فهُم المُخاطَبون ابتداءً، والتَّخليةُ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ

لَمّا بَيَّنَ اللّه تعالى أنَّهُ أوْحى إلى رَسولِهِ ﷺ، بَيَّنَ بَعْدَهُ تَفْصيلَ ما أَوْحَى إليه وهو الإنْذارُ والتَّبْشيرُ، أمّا الإنْذارُ فلِلْكُفّارِ والفُسّاقِ ليَرْتَدِعوا بسببِ ذلك الإنْذارِ عن فِعلِ ما لا يَنبغي، وأمّا التَّبْشيرُ فَلِأهْلِ الطّاعَةِ لِتَقْوى رغبتُهم فيها؛ إذْ لَيْسَ لِلْكُفّارِ ما يَصِحُّ أنْ يُبَشَّروا به حَقيقَةً وإنَّما قَدَّمَ الإنْذارَ على التَّبْشيرِ؛ لِأنَّ التَّخْليَةَ مُقَدَّمَةٌ عَلى التَّحْليَةِ، وإزالَةَ ما لا ينبَغي مُقَدَّمٌ في الرُّتْبَةِ عَلى فِعْلِ ما ينبَغي[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/67.
(2) البيضاويّ: أنوار التّنزيل: 3/104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/85.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/67.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186 - 187.

براعةُ طِباقِ الإيجابِ بين (الإنذارِ، والتّبشيرِ):

الإنـــذارُ رادعٌ لـلـمُـعـانِـد، والتّبشيرُ دافعٌ لازديادِ المُطيعِ

والجمعُ بين النِّذارَةِ والبِشارَةِ طِباقُ إيجابٍ اقتضاه المقامُ[1]؛ لبيان عميم أثرِهما، في مبدأ الثَّواب، والعقاب، وفي ذلك ردعٌ للمُعانِد، ودعوةٌ إلى التّفكّر، وتعزيزٌ للمُقبِل، وحثٌّ على المبادرة، والاجتهادِ.

دَلالةُ التَّوكيدِ بـ﴿أَنَّ﴾:

عِـظَـمُ المثوبةِ يَـسـتـدْعـي التَّوكيدَ

أكّدَ عِظمَ المثوبة مكانةً، وقُربًا، وعُلوَّ الجزاء تشريفًا وفضلًا، بقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وهذا يَستدْعي التّأكيدَ المُتحقّقَ بـ﴿أَنَّ﴾، وتقديمِ شبْهِ الجملة ﴿لَهُمْ﴾، فضلًا عن اسميّةِ الجملة[2].

تقديمُ الخبرِ شبْهِ الجملةِ ﴿لَهُمْ﴾:

خصَّهم بالمثوبةِ مـزيـدَ عِـنـايـةٍ وتشريفٍ

قدّم خبرَ ﴿أَنَّ﴾ وهو شبْهُ الجملة ﴿لَهُمْ﴾ على اسمِها ﴿قَدَمَ﴾؛ لتخصيص مثوبةِ قدمِ الصِّدق بالّذين آمنوا؛ مزيدَ عنايةٍ، وتشريفٍ، وعُلوِّ مكانةٍ، وإحالةَ تخصيصٍ[3].

فائدةُ إضافةِ (القَدم) إلى (الصِّدق):

الـصِّـدقُ مَـنـاطُ كـلِّ مَـكْـرُمـة ومنزلةٍ رفيعةٍ

وإضافَةُ القَدَم إلى الصِّدْقِ من إضافَةِ المَوْصوفِ إلى الصِّفَةِ، وفيها دلالاتٌ:

الأوّل: إنَّما عُبِّرَ عنها بها إذْ بها يحصُلُ السَّبقُ والوُصولُ إلى المَنازِلِ الرَّفيعَةِ، كَما يُعَبَّرُ عن النِّعْمَةِ باليَدِ؛ لأنَّها تُعْطَى بها، وقيلَ: مَقامُ صِدْقٍ، والوَجْهُ أنَّ الوُصولَ إلى المَقامِ إنَّما يَحْصُلُ بالقَدَمِ[4].

الثّاني: الدَّلالَةُ عَلى تَحَقُّقِها وثَباتِها، والتَّنْبيهُ عَلى أنَّ مَدارَ نَيْلِ ما ناله المؤمنون منَ المَراتِبِ العَليَّةِ هو صِدقُهُم ظاهرًا وباطنًا، فَإنَّ التَّصديقَ لا يَنْفَكُّ عنِ الصِّدْقِ[5].

---

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/83.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/67.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/117.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/5.

الثالث: التَّنبيهُ على أنَّهُ يَجِبُ أنْ يُخْلصَ للّه الطّاعةَ كَإخْلاصِ الصِّدقِ مِن شوائِبِ الكذبِ[1].

﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ بين الاستعارةِ، والكنايةِ:

قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ استعارةٌ؛ لأنّ المُرادَ بالقَدَم هاهنا: السّابقةُ في الإيمان، والتّقدّمُ في الإخلاص، والعبارةُ عن ذلك بلفْظِ القَدَم غايةٌ في البلاغة؛ لأنّ بالقَدَم يكونُ السّبقُ والتّقدُّم؛ فسُمِّيت قَدَمًا لذلك، وإنْ كان التأخُّر أيضًا يكونُ بها، على نحوِ ما ذكر اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: 94]، في تشبيه مَنِ اتَّخذ حَلِف اليمينِ خديعةً لمن حَلَف له، كمن زَلِقت قدمُه بعد ثبوتها، كما أنَّ القدمَ يكون التَّقدُّم بخَطْوِها، كما قال سبحانه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ [المدثر: 37]، فالتّقدُّم إلى فعل الطّاعات، أوِ التأخُّرُ عن فعل المعاصي يكونُ في غالبه بها، لذا سُمّيتْ هنا بأشرف حالاتِها وأنبَهِ مُتصرّفاتها. وقال بعضهم: إيمانُهم في الدّنيا هو قدمُهم في الآخرة؛ لأنَّ معنى القدم في العربية: الشّيءُ تُقدّمُه أمامك ليكون عُدّةً لك، حتى تَقْدُمَ عليه[2].

لفظةُ (القَدَم) أمارةُ الثَّباتِ والتّمكُّنِ، وسعْيُ المرء يكونُ بقَدَمِه

أو أنَّ القدمَ كنايةٌ عنِ العمل الَّذي يتقدَّم فيه، ولا يقع فيه تأخيرٌ ولا إبطاءٌ. والسَّبب في إطلاق لفْظِ القدم على هذه المعاني، أنَّ السَّعيَ لا يحصل إلّا بالقدم، فسُمِّي المسبَّبُ باسم السَّبب، كما سُمّيت النِّعمة يدًا، لأنَّها تُعطَى باليد[3].

لفظُ القدمِ يدلُّ على الثَّباتِ والتَّقدُّمِ

استُعير في قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ لفظُ القَدم للدَّلالَةِ على الثَّباتِ والتّمكُّن؛ لأنّ أصلَ الثَّبات يكونُ بالقدم، بحيث عُبّر عنه بالثُّبوتِ الحِسّيّ على طريقة الاستعارةِ التَّصريحيّةِ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/67.
(2) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/152 - 153.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/187.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/372.

بَلاغةُ المجازِ في لفظِ (القدم):

(القَدَمُ) مجازٌ أُطلقَ فيه الجزءُ وأُريد الكلُّ، وهو بمعنى السَّبْقِ مَجازًا، لكوْنِه سَبَبَهُ وآلَتَهُ، كَما تُطْلَقُ (اليَدُ) عَلى النِّعْمَةِ، و(العَيْنُ) عَلى الجاسوسِ، و(الرَّأْسُ) عَلى الرَّئيسِ، ثُمَّ إنَّ السَّبْقَ مَجازٌ عَنِ الفَضْلِ والتَّقَدُّمِ المَعْنَويِّ إلى المَنازِلِ الرَّفيعَةِ، فَهو مَجازٌ بمرتبتَيْنِ[1].

القـدمُ آلـةُ الـفـضـلِ، والـسَّـبـقِ إلى المنازلِ الرَّفيعةِ

أمّا (القَدَمُ) بِمَعْنى المَقامِ كَـ: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: 55] بإطْلاقِ الحالِّ وإرادَةِ المَحَلِّ، وإضافَتُهُ إلى الصِّدْقِ مِن إضافَةِ المَوْصوفِ إلى الصِّفَةِ. وأصلُهُ (قَدَمٌ صِدْقٌ) أيْ مُحَقِّقَةٌ مُقَرِّرَةٌ، وفيه مُبالَغَةٌ لجعْلِها عَيْنَ الصِّدْقِ، وتَنْبيهٌ عَلى أنَّهم إنَّما نالوا ما نالوا بِصِدقِهِم، ظاهرًا وباطنًا[2].

إيثارُ لفظِ الصِّدق:

أوثِرَ لفظُ الصِّدق؛ لأنَّه وعْدٌ، ووعْدُ اللّه صدقٌ دائمًا وأنَّ المؤمنين أيضًا قدموا بالصِّدق وهو الإيمانُ بالحقِّ، فصدّقوا الرَّسول وصدَقوا ما عاهدوا اللّه عليه، وإضافةُ القدم إلى ﴿صِدْقٍ﴾؛ دلالةٌ على زيادة فضلٍ، وأنَّه منَ السَّوابق العظيمة[3].

وعْدُ الله صِدقٌ لا يتخلَّفُ

بَراعةُ التّشريفِ بالعِنديّة:

العِنديّةُ تقتضي التّشريفَ، والاستقرارَ، والتَّبهيجَ، والتَّفريجَ، وتحقُّقَ الحصول[4]؛ لما فيه من معنى القُرب منه تعالى المُقتضي للتَّفضيل، والزُّلفَى إليه مكانةً ومكانًا؛ لإيمانهم بمَن أُرْسِلَ، وبما أرْسَلَ، وطاعتِه، وابتغاءِ مرضاته.

مُنتهى الغاياتِ القُربُ منه تعالى

إيثارُ اسْمِ الرُّبوبيَّةِ، ونسبتُها إليهم:

وصفَ تعالى نفسَه بالرُّبوبيةِ والألوهيّةِ تنْزيهًا، ونسبَها إليهم

مِن عاداتِ القرآنِ رَبطُ الهدايةِ بالرُّبوبيّةِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/5.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/5.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3510.
(4) التّفسير البلاغيّ للقرآن، المطعنيّ: 2/35.

تشوُّفًا إلى تربية أسرارِ العارفين وتقديسِ قلوبِ الموحِّدين، وجريًا على عوائدِ القرآن؛ من حيث ربْطُ الهداية بوصْفِ الرّبوبيَّةِ، لا إلى غيرها من أسمائِه تعالى وصفاتِه؛ لما في الإشعار بلفظةِ (الرَّبّ) منَ النَّظر في مصلحة عبيدِه[1].

تَوجيهُ الفصْلِ في جملةِ: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾:

الجملةُ بيانٌ لتعجُّبهم، وجوابٌ عن سؤالٍ سابقٍ

فُصلتْ هذه الجملةُ عن سابقتِها؛ لتكونَ جملةً تفسيريّةً لعَجَبِ الكافرين من بعثةِ محمّدٍ ﷺ رسولًا[2]، وإيرادُهم ههنا بعُنوانِ الكُفرِ ممّا لا حاجَةَ إلى ذِكْرِ سببِه، وتَرْكُ العاطفِ لِجَرَيانِه مَجْرَى البَيانِ لِلْجُملَةِ الَّتي دَخَلَتْ عَلَيْها هَمزَةُ الإنْكارِ[3]، فهو كالتَّفسير لتعجُّبهم، وهو من بديعِ الكلام لشدَّةِ ارتباطِه بما قبلَه ووقوعِه منه موقعَ التَّفسير حتى كأنَّه هو[4].

أو لتكونَ الجملةُ مستأنَفةً جوابًا عن سؤالٍ سابقٍ مُقتضاه: ماذا صَنَعوا بَعْدَ التَّعَجُّبِ؟ هَلْ بَقوا عَلى التَّرَدُّدِ والاستبْعادِ أوْ قَطَعوا فيه بِشَيْءٍ؟ فَقيلَ: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عَلى طَريقَةِ التَّأْكيدِ[5].

دَلالةُ أل في ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾:

ناداهم بالصِّفة القبيحةِ المُلازِمةِ لهم جزاءَ جُحودِهم وتمالُئِهم على الإنكارِ

اللّام هذه الأصحُّ أنّها على بابها، وأنَّ المرادَ بها الصِّلةُ، فالألفُ واللّام في قوله: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بمعنى (الّذي)، وعليه يكون المعنى: قال: (الّذين كفروا). وناداهم بالصِّفة القبيحةِ المُلازِمةِ لهم: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولم يُنادِهم بـ(الّذين كفروا)؛ لقُبح رأيِهم وفكرتِهم، وتوغّلِهم في الكُفْرِ والفُسوقِ، وانهماكِهم في الغيِّ؛ لتجاسُرِهم على النَّبيّ المُرسَلِ بنسبةِ مَن جاءَهم بِالهُدى والتَّوْحيدِ إلى السِّحْرِ

(1) ابو حيّان، البحر المحيط: 3/31.
(2) المطّعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/117.
(4) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/211.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/117.

والكذبِ، وهي الصِّفَةُ الَّتي أَوْجَبَتْ لَهُمُ العَجَبَ[1]. وفي جمعِه جمعَ سلامةٍ دليلُ كثرتِهم، وتمالُئهم على كُفرِهم.

التَّوكيدُ بـ ﴿إِنَّ﴾:

بيانُ إصرارِ الكافرين على وصْفِ رسولِهم المُرسَلِ إليهم بالسِّحرِ

سِيقت ﴿إِنَّ﴾ في جملةِ الفاصلةِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لتأكيدِ زعْمِ الكافرين على ما وصَفوا به رسولَ اللَّه ﷺ، وإصرارِهم على جُحودِهم بما يوحَى إليه، وكُفرِهم بما أُنزلَ عليه.

وجهُ التّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ القريبِ ﴿هَٰذَا﴾:

القصدُ إلى التّحقيرِ بالإشاراتِ القريبةِ

سَوْق اسْمِ الإشارةِ للقريبِ لقصد التَّحقيرِ في زعْمِهم؛ كما هو معهودُ الكافرين في مواضعَ كثيرةٍ منَ القرآن[2]. فـ﴿هَٰذَا﴾ يجوزُ أن يكونَ إشارةً للقرآن، وأن يكونَ إشارةً للرَّسول على قراءة ﴿لَسِحْرٌ﴾، ولكنْ لا بدَّ من تأويلٍ على قولنا: هو إشارةٌ للرّسول، أي: ذو سِحْر أو جعلوه إيّاه مبالغةً، وعلى قراءة ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ فالإشارةُ للرَّسول ﷺ فقط[3].

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لَسَٰحِرٌ﴾:

تأكيدُ مزاعمِ خصومِ الدّعوةِ بما يدلُّ على الإصرارِ

سيقتِ اللّامُ في ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ لتأكيد زعمِهم بأنَّه ﷺ كذلك، مُسترسِلين في التّأكيد بالجملةِ الاسميّةِ، وبـ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدةِ؛ رغبةً في تكذيب الدَّعوةِ بما يُفيدُ في اعتقادهمُ القَطْعَ[4].

نُكتةُ تنكيرِ السّاحرِ، وتنوينِه:

ما اعتقَدوه من سِحْرٍ مُحقَّرٌ، ودليلُ عجْزٍ

قولُهم في الإنْذارِ والبشارَةِ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾؛ إنَّما هو بسَببِ زعْمِهم أنَّهُ فَرَّقَ كلمَتَهم، وحالَ بَيْنَ القريبِ وقريبِه، فَأَشْبَهَ ذلك ما يفعلُهُ السّاحِرُ، وظَنّوهُ مِن ذلك البابِ[5]، وقال الزَّمَخْشَريُّ: "وهذا دَليلُ عجْزِهم واعترافِهم بِهِ وإنْ كانوا كاذبينَ في تَسْميَتِهِ سِحْرًا"[6]، ولَمّا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/138، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/214.
(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 36.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/257.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3511.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/103.
(6) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/328.

كانَ قولُهم فيما لا يُمكِنُ أنْ يَكونَ سِحْرًا ظاهِرَ الفَسادِ، لم يَحْتَجْ قولُهم إلى جَوابٍ[1]، والشّاهدُ في هذا القِيلِ، تنكيرُ لفظةِ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ تحقيرًا لما اعتقَدوه سِحرًا.

تَوجيهُ القراءتَيْن في: ﴿لَسَٰحِرٌ﴾:

وصْفُهم الرّسولَ ﷺ بالسّاحرِ دليلُ عجْزِهم واعترافِهم به

قرأ الكوفيّون حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ وخَلَفٌ، ووافقهم ابنُ كثيرٍ: ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ بألف بعد السِّين وكسر الحاء، نعتًا لرسولِ الله ﷺ - على زعمهم - ، وقرأ الباقون بكسر السِّين، وإسكان الحاء من غير ألف ﴿لَسِحْرٌ﴾ نعتًا للقرآن[2] - على زعمهم - ، ويجوزُ أن تكونَ هذه القراءةُ إشارةً للرّسول ﷺ أيضًا[3] - على افترائهم - فمَن قرأ: ﴿لَسَٰحِرٌ﴾: فهذا إشارةٌ إلى رسول الله ﷺ - على زعمهم - ، وهو دليلُ عجْزِهم واعترافِهم به، وإن كانوا كاذِبين في تسميتِه ساحرًا[4].

سُمّيَ سِحْرًا بسببِ أنّه فرّقَ بذلك كلمَتَهم

وعلى قراءة الباقين يكونُ قولُهم في الإنذار بالقرآن والبِشارة: ﴿لَسِحْرٌ﴾، إنّما هو بسببِ زعْمِهم أنّه فرّق بذلك كلمتَهم، وحال بين القريبِ وقريبِه فأشبهَ ذلك ما يفعلُه السّاحر فظنّوه من ذلك البابِ[5].

وصَفَ الكفّارُ القرآنَ بالسّحر لعجْزِهم الإتيانَ بمثلِه

ووصْفُ الكُفّارِ القُرْآنَ بكَوْنِه سِحْرًا يَدُلُّ عَلى عِظَمِ مَحلِّ القُرْآنِ عندهم وكونِه مُعجِزًا، وأنَّهُ تَعَذَّرَ عَلَيْهِم فيه المُعارَضَةُ، فاحْتاجوا إلى هذا الكلامِ[6].

ويُحْتَمَلُ أنْ يكونوا ذكَروهُ في مَعرِضِ الذَّمِّ، ويُحْتَمَلُ أنَّهم ذَكَروهُ في مَعرِضِ المَدْحِ، فَلِهَذا السَّبَبِ اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ فيه. فَقال بَعْضُهم:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/11.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/256.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/257.
(4) النَّسَفيّ، مدارك التّنزيل: 2/6.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/103.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/187.

أرادوا به أنَّهُ كلامٌ مُزَخْرَفٌ حَسَنُ الظّاهِرِ، ولَكِنَّهُ باطِلٌ في الحقيقَةِ، ولا حاصلَ له، وقال آخرونَ: أرادوا به أنَّهُ لِكمالِ فصاحَتِهِ وتَعَذُّرِ مثْلِهِ، جارٍ مَجْرَى السِّحْرِ[1].

عِلَّةُ تَرْكِ الرَّدِّ على وصْفِهِمُ القرآنَ بالسّحر:

حَملُهم القُرآنَ عـلى الـسِّـحـرِ كـلامٌ فـاسـدٌ لا يَستحقُّ الرَّدَّ

واعْلَم أنَّ هذا الكلامَ لَمّا كان في غايَةِ الفَسادِ لم يُذْكَرْ جَوابُهُ، وإنَّما قُلْنا: إنَّهُ في غايَةِ الفَسادِ؛ لأنَّهُ ﷺ كانَ مِنهم، ونَشَأ بَيْنَهم، وما غابَ عَنْهم، وما خالَطَ أحَدًا سِواهم، وما كانَت مَكَّةُ بَلْدَةَ العُلَماءِ والأذْكياءِ، حَتّى يُقالَ: إنَّهُ تَعَلَّمَ السِّحْرَ، أوْ تَعَلَّمَ العُلومَ الكَثيرَةَ مِنهم، فقدرَ عَلى الإتْيانِ بِمِثْلِ هذا القُرْآنِ. وإذا كانَ الأمرُ كذلك كان حَملُ القُرْآنِ عَلى السِّحْرِ كلامًا في غايَةِ الفَسادِ، فلهذا السَّبَبِ تُرِكَ جَوابُهُ[2].

سِرُّ وصْفِ السّاحرِ أوِ السِّحْرِ بـ﴿مُّبِينٌ﴾:

بيانُ تُناقُضِهم وحَيْرتِهم فيما جـاءَهـم بـه الرَّسولُ

قولُه تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ أيْ سِحْرُهُ ظاهِرٌ في نفْسِهِ، وهو مِن شدَّةِ ظُهورِهِ مُظْهِرٌ لِكُلِّ شَيْءٍ أنَّهُ كذلك، فَجاؤوا بِما هو في غايَةِ البُعْدِ عنْ وصْفِهِ، فَإنَّ السِّحْرَ قد تَقَرَّرَ لِكُلِّ ذي لُبٍّ أنَّهُ - مع كونِهِ تَمويهًا لا حَقيقَةَ لَهُ - شَرٌّ مَحْضٌ لَيْسَ فيهِ شَيْءٌ مِنَ الحِكْمَةِ، فَضْلًا عَنْ أنْ يَمتَطيَ الذُّرْوَةَ منهُ مع أنَّ في ذلك ادِّعاءَهم أمرًا مُتَناقِضًا، وهو أنَّهُ مِن قوْلِ البَشَرِ كما هي العادةُ في السِّحْرِ، وأنَّهم عاجِزونَ عَنْهُ، لأنَّ السِّحْرَ فِعْلٌ تُخْفَى الحيلَةُ فيهِ حتّى يُتَوَهَّمَ الإعْجازُ به، فقدِ اعْتَرَفوا بِالعَجْزِ عَنْهُ وكَذَّبوا في ادِّعاءِ أنَّهُ لَسِحْرٌ؛ لِأنَّ الآتيَ به مِنهم لم يُفارِقْهم قَطُّ، وما خالَطَ عالِمًا لا بِسِحْرٍ ولا غَيْرِهِ حَتّى يُخالِطَهم فيهِ شُبْهَةٌ، فَهم يَعْلَمونَ أنَّ قولَهم في غايَةِ الفَسادِ[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/187.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/187 - 188.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/68.

فائدةُ إيرادِ الصِّفة على صيغةِ (فُعيل):

أرادوا المبالغةَ في إبانتِه للسِّحر ليُكذِّبوه

وردَت الصِّفَةُ على صيغَةِ (فعيل)؛ للدّلالةِ على المبالغةِ في إبانتِه للسِّحر رغبةً في التَّكذيبِ والتّمادي، تَماديًا في العِنادِ كما هو طبع المُكابِرِ اللَّجوحِ، ودأب المُفْحَمِ المَحْجوجِ[1]، فضلًا عن إرادتِهم أنّه ذو سحرٍ - حاشاه صلواتُ ربي وسلامُه عليه - ظاهرٌ فيه ذلك، مُتفنِّنٌ فيه.

إيرادُهم الجُملَةَ الاسميَّةَ مع التَّأْكيدِ:

أكّدوا مَقالتَهم للإيهامِ بأنَّها ثابتٌ مُحَقَّقٌ

وعبّرَ عن قولِهم بالجملةِ الاسميّةِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للإشعار بأنّهم إنَّما قالوه عن عقيدةٍ تامَّةٍ، ويقينٍ راسخٍ في التَّكذيب، وللإيهام بأنَّ ما قالوه ثابتٌ مُحقَّقٌ.

تَوكيدُ الخبر بـ (إنّ، والجملةِ الاسميّةِ، واللّام):

التّعبيرُ عن رغبَتِهم الشَّديدةِ في تكذيبِ الدَّعوةِ

قال الكافِرونَ عَلى طريقةِ التَّأكيد: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾، فهو مَقول قولِهم، سواء على وصْفِهم الرَّسولَ بالسّاحر المُنبئِ بأنَّهم كذَّبوا بكوْنِ ما جاءهم به من عند الله، أو على نَعتِهم الوحيَ المُنزَّلَ بأنَّ هذا الكلامَ كلامُ السِّحر وأصحابِه، أيْ أنَّه كلامٌ يُسْحرُ به، وقد أكَّد الخبرَ بـ (إنّ، والجملة الاسميّة، واللّام)؛ لرغبتِهم الشّديدةِ في تكذيب الدّعوةِ، وإظهارِها في معرضِ الدّعاوَى الموغلةِ في البُطلان.

بَلاغةُ الفَصْلِ في جُمَلِ الآيةِ:

اختلافُ الخبرِ والطَّلبِ على سبيلِ التَّعدادِ

وإنَّما فُصلتِ الجُملُ لاختلافها خبرًا وطلبًا على سبيل التَّعدادِ، نحوَ قولِهم: "واعبد ربّك، العبادةُ حقٌّ له"، على تعويل التَّرتيبِ إلى الذِّهن دونَ اللَّفظ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أنْذرَ) و(حذّرَ) و(بلّغَ):

الإنْذارُ تخويفٌ مع إعْلام موضِع المخافةِ من قولِك: نذرتُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/416.

بالشَّيْء؛ إذا عَلمتَه فاستعددتَّ لَهُ، فإذا خوَّف الإنْسانُ غيرَه وأعلَمه حالَ ما يُخوّفه به فقد أنذَرَه، وإن لم يُعلِمهُ ذلك لم يَقُل أنذَرَه، والنَّذرُ ما يَجعلُه الإنسانُ على نَفسه إذا سلمَ ما يخافُه، والإنذارُ إحْسانٌ منَ المُنْذر، وكلّما كانتِ المخافةُ أشدَّ كانتِ النِّعْمَةُ بالإنذار أعظمَ، ولهذا كان النَّبيُّ أعظمَ الناس بإنذاره لَهم عِقابَ الله تعالى[1].

الإنـذار تخويف بذِكْر مَوْضِعه

الإعلامُ والإخبارُ:

إنَّ الإعْلامَ: التَّعريضُ لأن يعلمَ الشَّيْءُ، وقد يكونُ ذلك بوضْع العِلْم في القلب؛ لِأنَّ الله تعالى قد علَّمنا ما اضطُررنا إليه، ويكونُ الإعلامُ بنصْبِ الدّلالة، والإخبارُ الإظْهار للْخَبَر عَلِم به أو لم يعلم[2].

الإعـلامُ بنصْبِ الدّلالةِ والإخبارُ إظهارٌ وإنْ غُيِّبتِ العلامةُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 242.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 96.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»